



السلاح الأمضى في الحسبة والدعوة هو الرفق واللطف، والأسلوب الأمثل الذي يوصل إلى الغاية هو التيسير والتبيشير، فمن كان هدفه هداية الناس وإصلاحهم اتبع هذا الأسلوب واستعمل ذلك السلاح، ومن كان يحب أن يتعالى أو ينفر الناس ويصد عن الدين فعليه بالغلظة والتشدد والتنفيذ.

بعض الناس يحسبون أنهم يحتسبون وأنهم يحسنون إلى الإسلام وهم في الحقيقة يصدون عنه وينفرون منه. ما أكثر ما أرى نماذج منهم، قُساة جُفاة، أحسّ أنهم لا يسرّهم شيء أكثر من إفراغ الجنة من الناس وقدفهم في النار. لو كانت لهم سبيل إلى ملك الجبال طلبوا منه أن يُطبق على العصابة الأخشبين، ولو كانت مفاتيح أبواب الجنة في أيديهم لأوصدوها كلها ولم يتركوا إلا كوة صغيرة يدخل العباد منها إلى الجنة أفراداً، ولو كانت مفاتيح أبواب النار في أيديهم لفتحوها كلها ودفعوا إليها الناس بالأكواخ.

يَا أَيُّهَا الْمُحْتَسِبُونَ وَالدُّعَاءُ:

إن التشدد في شروط التدين ومطالبة الناس بما لا يطيقون يَصُدُّ عن الدين.
رأيتم إلى السد يُبني في مجرى النهر كيف يمنع الماء؟ إذا نقص البناؤون من ارتفاعه ذرعاً زاد الماء المتدفق عبر النهر ملايين الأمتار المكعبة في اليوم الواحد، وإذا زادوا ارتفاعه نقصت من الماء المتتدفق ملايين.
كلما رفعتم السد - يا أيها الدعاة والمحتسبون - حجزتم الناس عن الإسلام، وكلما خفضتموه أقبل الناس على الإسلام أزواجاً بعد أفواج.

* * *

أمر الله تبارك وتعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يقولا لفرعون قولاً ليناً: قال الشنقيطي في "أصوات البيان": أي كلاماً لطيفاً سهلاً رقيقاً ليس فيه ما يُغضب وينفر.

ثم بين - عز وجل - المراد بالقول اللين بقوله: {اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل: هل لك إلى أن تزكي وأهدئك إلى ربك فتخشي؟}

وهذا غايةٌ لِينَ الكلمَ ولطافته ورفقَه. وما أَمْرَ بِهِ رَبُّنَا تبارَكَ وتعالَى موسى وهارون في هذه الآية الكريمة أَشَارَ إِلَيْهِ فِي غير هذا الموضع، كقوله: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحَكْمَةِ وَالْمَوْعِدَةِ الْحَسَنَةِ}.

ثم قال: "يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون بالرفق واللذين لا بالقسوة والشدة والعنف".

لذلك قال سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كانت فيه خصال ثلاثة، أولها: "رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى".

وكان أصحاب ابن مسعود إذا مرّوا بِقَوْمٍ ورأوا منهم ما يكرهون يقولون: "مَهَلًا رَحْمَكُمُ اللَّهُ، مَهَلًا رَحْمَكُمُ اللَّهُ". وقال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: "الناس محتاجون إلى مداراة ورفق في الأمر بالمعروف بلا غلطة، إلا رجلاً معلناً بالفسق فلا حرمة له".

وسائله رجل كيف يأمر بالمعروف فقال: "تأمر بالرفق والخضوع".

وصلّى رجلٌ خلفَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فعُطِسَ أحدَ الْمُصْلِينَ، فَقَالَ لَهُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ: "يرحِمُكُمُ اللَّهُ". فنظرَ الْقَوْمُ إِلَيْهِ نظَرَاتٍ حَادَّةً مُؤْنَيَّةً حَتَّى أَخْرَجَهُ وَأَضْجَرَهُ. قَالَ: مَا شَأْنَكُمْ؟ لَمَا زَرْتُمْنِي بِأَبْصَارِكُمْ؛ فَصَارُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَانِهِمْ. قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يَصْمَمُونَنِي سَكَتَّ".

كان الرجلُ حديثَ عهد بالإسلام لم يُعرف آدابه وأحكامه بعد، وقد اشتَدَّ عَلَيْهِ النَّاسُ حَتَّى أَفْزَعُوهُ، فَمَا زَانَ صَنْعُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ؟

قال صاحب القصة (معاوية بن الحكم السلمي، والحديث أخرجه مسلم): فلما صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، بأبيه هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه، فوالله ما كهرني (ما عبس في وجهي) ولا ضربني ولا شتمني. قال: "إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلَحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالْتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ".

قال الإمام النووي في تعليقه على الحديث: "فِيهِ بِيَانٌ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ عَظِيمِ الْخَلْقِ، وَرَفْقِهِ بِالْجَاهِلِ، وَرَأْفَتِهِ بِأَمْمَتِهِ وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَفِيهِ التَّخْلُقُ بِخَلْقِهِ فِي الرَّفِقِ بِالْجَاهِلِ وَحَسْنُ تَعْلِيمِهِ وَاللَّطْفِ بِهِ وَتَقْرِيبِ الصَّوَابِ إِلَى فَهْمِهِ".

* * *

مَنْ هُوَ قَدوتُكُمْ وَمَثَلُكُمُ الْأَعْلَى يَا أَيُّهَا الْمُحْتَسِبُونَ وَالدُّعَاءُ؟ أَلِيُّسْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ إِنَّهُ نَبِيُّ الرَّفِقِ وَالرَّحْمَةِ، الَّذِي شَهَدَ لَهُ رَبِّنَا تبارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عَلِيَّائِهِ فَقَالَ: {فِيمَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِنُنْتَ لَهُمْ}.

وَالَّذِي أَوْصَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: "يَا عَائِشَةَ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفِقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعِنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سَوَاهُ".

وعنها أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّ الرَّفِقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ".

هل بعد هذا الْهَدِيُّ النَّبِيِّ رَأَى لِفَائِلَ أو مُتَسَعَ لِمَقَالٍ؟ أَيْنَ يَذْهَبُ الْمُحْتَسِبُونَ الْقَسَاءُ الْجَفَاءُ بِذَلِكَ كُلَّهُ؟ مَنْ لَمْ يَقْتُدِ بِرَسُولِ اللَّهِ -عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ- وَلَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَدْعُو بِرَفِقٍ فَلِيَدْعُ الْحَسْبَةَ وَيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ، فَلَا حَاجَةٌ لِلْإِسْلَامِ فِي حَسْبِتِهِ وَدُعْوَتِهِ.

المصادر: